﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾

[هود: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

شُبهاتُ المُضلِّلين دائمًا تُنبِئُ عن ضَحالةِ عقولِهم، وسَخافةِ تَفكيرِهم

لمّا حَكى ربُّ العزّة ﷻ شُبَه المُكذّبين بدعوة نوحٍ عليه السلام؛ ذكر ﷻ جوابَ نوحٍ عليه السلام المُبيِّنَ لضلالاتِهم، الكاشفَ عن جهالاتِهم، الدّاعيَ إلى الإشفاقِ عليهم؛ الدّالَّ على سخافة شُبهاتِهم وسطحيّتِها، المُخبِرَ أنَّ الجهلَ والإصرارَ على الباطل والإنكارِ والجحودِ هو دَيْدَنُ الكفّارِ المعانِدين في كلِّ زمانٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٖ﴾: البيِّنةُ: الحُجَّةُ الواضحةُ الظَّاهرةُ، عقليَّةً كانت أو محسوسةً، وتُطلقُ على المعجزةِ، فتكونُ بمعنى الآية[2]. وهي مِنَ البيان بمعنى الإيضاحِ والكشفِ عنِ الشَّيء. وكذلك: ما يَتَبيَّنُ به الشَّيءُ منَ الدَّلالة وغيرِها. نقول: بان الشّيءُ بيانًا، فهو بيِّن: اتَّضحَ. وأبان الشَّيءُ والشيءَ يُستعمل لازما ومتعدِّيًا، فهو مُبِين: اتضح إن كان لازمًا، وأوضحه إن كان متعدِّيًا[3]. وأصلُها يدورُ حول معنى انكشاف الشَّيء وظهورِه[4].

(1) الرّزي، مفاتيح الغيب: 17/338، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/142، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/271، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/239، والمراغي، تفسير المراغي: 12/26، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50، والهرري، حدائق الروح والريحان: 13/60.

(2) الرّاغب، المفردات: (بان)، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/133، والآلوسي، روح المعاني: 6/314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بان).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بان).

2) ﴿رَحْمَةً﴾: الرَّحمةُ: رقَّةٌ وتعطُّفٌ يقتضي الإحسان[1]. ومعناها المِحوريُّ: اتِّساعٌ في الشَّيء مع رقَّةٍ وعطفٍ ورأفةٍ[2]. والرَّحمةُ أيضا: المغفرةُ؛ لأنَّها من مقتضيات الإحسان[3]. والرَّحمةُ في قوله تعالى حاكيًا قولَ نوحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾. تعني: النُّبوَّة. ومثلُها قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 105]، أي: بنبوَّته[4].

3) ﴿فَعُمِّيَتْ﴾: عَمِيَ عليه الأمرُ، وعُمِّي عليه: اشتبهَ عليه والتبسَ حتى صار كالأعمى، والمصدرُ: التَّعميةُ[5]. وهو منَ العَمى الذي هو ذهابُ البصر كلِّه من كلتا العينَين، ولا يقال هذا لمن ذهب بصرُه من عين واحدة، بل منهما معًا[6]. ومعناه المِحوريُّ: السَّتْرُ والتَّغطيةُ، واحتجابُ الرُّؤية[7].

4) ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾: اللِّزام: الدَّوامُ على الشَّيء وعدمُ الانفكاك عنه. "والالتزام: الاعتناقُ". وشرٌّ لازمٌ، أي: دائمٌ. "واللَّازمُ: ما يمتنعُ انفكاكُه عنِ الشَّيء. ورجلٌ لُزَمَة: يَلزَمُ الشَّيءَ فلا يفارقُه"[8] والمعنى المِحوريُّ: شدُّ شيءٍ إلى شيءٍ شدًّا لا يُمَكِّنُ منَ المفارَقة والإفلاتِ؛ فيكونُ مصاحبًا مصاحبةً دائمةً[9]، والإلزام ضربان: ضربٌ بالتَّسخير منَ اللّه، أو بالقهر منَ الإنسان، وضربٌ بالأمرِ والحُكم[10]. والمعنى في الآية: أنُكرِهُكم على قَبولها ونَقهرُكم على الاهتداء بها[11]؟

5) ﴿كَٰرِهُونَ﴾: الكَره والكُره: الإباءُ. وكَرِه الشَّيءَ كراهيةً: لم يُرِدْه فهو كارِه. والكُره على ضربين: أحدُهما: ما يعافُه الإنسانُ من حيث الطَّبعُ، والثّاني: ما يعافُه من حيث

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، والمفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رحم).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رحم)، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/133، والآلوسي، روح المعاني: 6/239.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عمى).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عمى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمى).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لزم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لزم).
(10) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (لزم).
(11) الزمخشري، الكشاف: 2/390، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/133، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/239.

العقلُ والشَّرعُ[1]. ومعناه المِحوريُّ: الصَّدُّ والرَّدُّ وعدمُ القَبول؛ لأنَّ القَبول دخولٌ وتغلغُلٌ في النَّفس[2]. والكارِه: المُبغِض للشَّيء. والمعنى في الآية: أنَّهم لا يريدونها ولا يختارونها، فهم مُعرضون عنها غيرُ مُتدبِّرين فيها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال يا قومي أخبروني ماذا ترَوْن إنْ كنتُ على علْمٍ ومعرفةٍ من رَّبي بصحَّة دَعْواي، ورزقني منه نعمةَ التَّوفيق والنُّبوَّةِ والحكمةِ فالتزمتُ أمرَ ربي، فخفيتْ والتبستْ عليكم هذه النِّعمةُ فلم تَهتدوا إليها؛ فكيف نُجبرُكم على قَبولها، وأنتم لها كارهون[4]؟

الإيمانُ الصَّادقُ يكونُ عنِ اقتناعٍ واختيارٍ لا عن إكراهٍ وإجبارٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ من شبْهِ كمالِ الاتِّصال في ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ[5] ناشئٌ عن سؤالٍ مستفادٍ منَ الآية السَّابقةِ، فكأنَّ سائلًا قال: بماذا أجاب نوحٌ عليه السلام الملأ الكافرين من قومه الذين قالوا له ما قالوا؟ فجاءت هذه الآيةُ بالإجابة، ففُصلتِ الجملةُ عنِ التي قبْلها على طريقة حكايةِ الأقوال في المُحاورات، فهذه لمَّا وقعت مُقابلًا لكلامٍ محكيٍّ يقالُ، فُصلت الجملةُ ولم تُعطَفْ[6]، فالجملةُ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ للتَّلطُّف بهم في الخطاب ومُناصفتِهم[7].

لم يأخُذِ الرُّسلُ أقوامَهم بالشِّدَّةِ والقَسوةِ، بل حاوَروهم مُناصفةً ورحمةً

(1) الرّاغب، المفردات، السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، والزبيدي، تاج العروس: (كره)، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 769.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كره).

(3) البغوي، معالم التنزيل: 4/171، والزمخشري، الكشاف: 2/390، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/55، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/239، 240، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/53.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/381، والبغوي، معالم التنزيل: 4/171، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/275.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/239.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50.

(7) درويش، إعراب القرآن: 4/338.

الغرَضُ من النِّداءِ في ﴿يَقَوْمِ﴾:

مَن نأَى بنفسِه عنِ اتِّباعِ الحقِّ نأتْ به نفسُه عن مجالسِ أهلِه

افتُتحت مراجعةُ نوحٍ ﷺ قومَه بالنِّداء لطلب إقبالِ أذهانهم لوعْيِ كلامِه [1] ﷺ، فقال مخاطبًا إيَّاهم: ﴿يَقَوْمِ﴾ وشرع يكرّرُ هذه اللَّفظةَ في كلِّ مقالةٍ تذكيرًا لهم بأنَّه منهم لِتعْطِفهمُ الأرحامُ وتردَّهمُ القراباتُ عن حسده أوِ اتِّهامه إلى قَبول ما يُلقي إليهم منَ الكلام، وأشار بأداة البُعد - مع قُربِهم - إلى مباعدتِهم فيما يقتضي غايةَ القُرب[2].

دَلالةُ اصطفاء (قوم) مُنادًى:

امتلأت قلوبُ الرُّسلِ رحمةً بأقوامِهم، وألسنتُهم حُسنًا مِن طِيب أقوالِهم

النِّداءُ في قوله: ﴿يَقَوْمِ﴾ نداءُ استعطافٍ لهم[3]، وفيه غايةُ التَّلطُّف بهم[4]، والاستدراجِ لهم[5]، أي: يا أهلي وعشيرتي الذين يسُرُّني ما يسُرُّهم ويُؤلمني ما يُؤلِمُهم[6]. وخاطبَهم ﷺ بلقب القومِ مضافًا إلى ضمير المتكلِّم الذي حُذف منَ الرَّسم مُراعاةً للنُّطق؛ استعطافًا وإيذانًا بأنَّه ﷺ يَدعوهم إلى ما هو خيرٌ لهم[7]، واستنزالًا لطائرِ نفورِهم تذكيرًا لهم بأنَّه منهم فلا يريدُ لهم إلا خيرًا[8].

الغرَضُ منَ الاستفهامِ في: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

هيهاتَ لا ينفعُ مع الجاهلِ نُصحٌ، ولا ينجحُ في المُصرِّ وعْظٌ

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني؛ فإنَّ الرُّؤيةَ سببٌ للإخبار[9]؛ أي: أخبروني. وفيه إيماءٌ إلى ركاكةِ رأيِهمُ المذكورِ[10]، و﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ استفهامٌ عنِ الرُّؤية بمعنى الاعتقادِ، وهو استفهامٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/272.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/273.
(4) القنوجي، فتح البيان: 6/168.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/240.
(6) طنطاوي، الوسيط: 7/193.
(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/54.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50.
(9) البروسوي، روح البيان: 4/118.
(10) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201.

تقريريٌّ إذا كان فعلُ الرُّؤية غيرَ عاملٍ في مفرد، فهو تقريرٌ على مضمون الجملةِ السَّادَّةِ مَسدَّ مفعولَيْ (رأيتم)؛ ولذلك كان معناه آيلًا إلى معنى (أخبروني)، ولكنَّه لا يُستعملُ إلَّا في طلبِ مَن حالُه حالُ مَن يجحدُ الخبرَ[1]، فالاستفهام للتَّقرير ليجعلَ المعنى على سبيل العرْضِ لهم والاستدراجِ للإقرار بالحقِّ، وقيامِ الحُجَّة على الخصمِ، ولو قال: على أنِّي على حقٍّ من ربِّي لقالوا له: كذبت.

الغرضُ منَ التَّعبير بأسلوبِ الشَّرطِ:

احتمالُ الصّوابِ يُلزمُ العقلاءَ بالتّفكيرِ في عواقبِ التّكذيبِ

دخولُ الشَّرط في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: لا يوجِب شكًّا لحقِّ النَّبيِّ نوحٍ ﷺ في أمره، لكنَّ الشَّكَّ لاحقٌ للمخاطَبين، وتلخيصُ الكلامِ: قل أرأيتم إن كنتُ على بيِّنة من ربِّي عندكم، وفيما يصحُّ من عقولِكم وتقبلُه أفهامُكم، فدخل الشَّرطُ في كلام النَّبيِّ ﷺ لهذا التَّرتيب[2].

معنى أداةِ الشّرطِ ﴿إِن﴾ ودَلالتُها:

آتى اللهُ رُسُلَه الحُجَّةَ على أقوامِهم، وبعثَهم بالرَّحمة والشَّفقةِ عليهم

تُستعمل (إنْ) في المعاني المحتملةِ الوقوعِ، والمشكوكِ في حصولِها، والموهومةِ، والنَّادرةِ، والمستحيلةِ، وسائرِ الافتراضات الأخرى، فهي لتعليق أمرٍ بغيره عمومًا. وربَّما وردَ بعدَها المُتيقَّنُ قليلًا، وتُستخدمُ في هذه الحال لمعانٍ، منها: تنزيلُ المخاطَب منزلةَ الجاهل، لعدم جرْيِه على موجِبِ العلم[3]، وهذا هو المقصودُ هنا، فإنَّ نوحًا ﷺ لم يتشكَّك في إيتاء اللهِ إيَّاه النُّبوَّةَ والبيِّناتِ، ولكنَّه تنزَّلَ مع قومه لإقامة الحُجَّةِ عليهم.

معنى حرْفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ ودَلالتُه:

صاحبُ البيِّنةِ مُستعلٍ بها على المُشكِّكين، مُستعينٌ بالحقِّ على المُبطِلين

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ هو الاستعلاءُ؛ لأنَّ صاحبَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(2) الواحدي، البسيط: 11/389.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/69.

البيِّنة يكونُ مُستعليًا على سواه[1]؛ أي: على يقين وجزم، مُتمكِّنٌ من ذلك أشدَّ التّمكُّن، يعني: وهو الرَّسولُ الكاملُ القدوةُ، الذي ينقادُ له أولو الألبابِ، ويَضمحلُّ في جنْب عقلِه عقولُ الفحولِ منَ الرِّجال، وهو الصَّادق حقًّا، فإذا قال: إنِّي على بيِّنة من ربِّي، فحسبُ المخاطَبِ بهذا القول شهادةً له وتصديقًا[2].

الغرَضُ منَ الاستعارة في ﴿عَلَىٰ﴾:

مَـــنِ امتـطَى صهوةَ البيِّناتِ هابَتْه فـوارسُ الشُّبهاتِ

يفيدُ الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ معنى الاستعلاءِ، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[3]، وهو هنا من باب الاستعلاءِ المَجازيِّ، حيث شبَّه البيِّنةَ بأكَمَةٍ يقفُ عليها الدَّاعي ثابتًا فوقَها مُتمكِّنًا منها، يُشرفُ منها على المخاطَبين، بحيث يراهم، ولا يخفى عليه حالُهم، أو بفرسٍ قويٍّ يَمتطي فارسُه صهوتَه، ويتحكَّمُ فيه، ومن بديع هذه الاستعارة أنَّها تجعلُ صاحبَ البيِّنة مُستعليًا بالحقِّ على المُبطلين المُضلِّين، مُتمكِّنًا منه أشدَّ التَّمكُّن. فقولُه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾؛ أي: مع بيِّنةٍ، أي: مصاحبًا لبيِّنةٍ[4]. فاستُعير الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ دون غيرِه لأداء هذا المعنى، وقد حَسُنَت استعارتُه على طريقة الاستعارةِ التَّبعيَّةِ، باعتبارِ أنَّ معانيَ الحروف تابعةٌ للمعاني في الأسماء.

معنى حرْفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾ ودَلالتُه:

مَنِ اقتبسَ منَ الوحْيِ استنارَ، ومَـــنْ أعـــرضَ أكلَتْه النَّارُ

يدلُّ الحرف ﴿مِّن﴾ على ابتداء الغاية، أوِ ابتداء الفعل، وإليه تعودُ أغلبُ معانيه[5]. وقولُ نوحٍ عليه السلام: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ يدلُّ على أنَّ ابتداءَ إرسال هذه البيِّنةِ كان منَ اللّه تعالى، فمصدرُها منه سُبحانه، وهو تعالى الآمرُ والمُقدِّرُ. وإذا كان ذلك كذلك فإنَّه يدلُّ

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/338.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.
(3) المالَقي، رصف المباني، ص: 433، وفهد زايد، الحروف، ص: 134.
(4) الجمل، حاشية على الجلالين: 3/425.
(5) السامرائي، معاني النحو: 3/76.

على اصطفاءِ اللّه نبيَّه نوحًا ﷺ بالرِّسالة، وفيه ردٌّ على الملأ من قومه الذين زعَموا أنَّ نوحًا ﷺ كاذب - حاشاه - في ادِّعاء النُّبوَّةِ، وأنَّ الرُّسلَ لا يكونون منَ البشرِ.

دَلالةُ لفظ ﴿رَّبِّي﴾ وسِرُّ إضافتِه:

في الرُّبوبيَّةِ جمالُ الرِّعايةِ، وفي النُّبوَّةِ كمالُ الرَّحمةِ والعنايةِ

اختيرَ وصفُ الرَّبِّ دون اسم الجلالة في قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ للدَّلالة على أنَّ إعطاءَه البيِّنةَ والرَّحمةَ فضلٌ منَ اللّه أراد به إظهارَ رِفقِه وعنايتِه به[1]، ويُضاف إلى ذلك أنَّه ﷺ أراد أن يزيدَ من ترغيب قومِه في الإيمان باللّه ﷻ؛ لذلك قال: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ مُضافًا لياء المتكلِّم؛ أي: الذي أوجدني وأحسنَ إليَّ بالرِّسالة وغيرِها يشهدُ بصحَّةِ دعْواي شهادةً لا يتطرَّقُ إليها عند المُنصفِ شُبهةٌ فكيف بالظَّنِّ[2]!

دلالة العطف بالواو في ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾:

بين البيِّنةِ والرّحمةِ عُمومٌ وخصوصٌ

الواو هي العاطفةُ، حيث عطفت جملةَ ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ على جملةِ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، وعطفُ الرَّحمةِ على البيِّنةِ يقتضي المغايرةَ بينهما، وهي مغايرةٌ بالعموم والخصوص؛ لأنَّ الرَّحمةَ أعمُّ منَ البيِّنة؛ إذِ البيِّنةُ على صدْقِه من جملة الرَّحمةِ به؛ ولذلك لمَّا أُعيدَ الضَّميرُ في قوله: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ أعيدَ على الرَّحمة لأنَّها أعمُّ[3].

الغرَضُ من تنكيرِ ﴿رَحْمَةً﴾:

النُّبوَّةُ رحمةٌ جليلةٌ، يُنقذُ اللّه بها عبادَه منَ المهالكِ والمُوبقاتِ

جاء لفظُ ﴿رَحْمَةً﴾ نكرةً في قول نوحٍ ﷺ لقومه: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ لإفادة التَّعظيم؛ لأنَّها في سياق المدْحِ، وذكرِ عظيمِ فضلِ اللّه تعالى عليه؛ أي: آتاني ربِّي نعمةً عظيمةً منه سُبحانه[4]، ورحمةً من عنده خاصَّةً بي فوق رحمتِه العامَّةِ للنَّاس جميعًا[5]، والمرادُ بتلك الرَّحمةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/272.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/239.
(5) محمود حجازي، الواضح: 2/118.

إمَّا النُّبوَّةُ وإمَّا المعجزةُ الدَّالَّةُ على النُّبوَّة[1]، وإنَّما جُعلت النُّبوَّةُ رحمةً؛ لأنَّ اللّه ﷻ يُنقذُ بها الخَلقَ منَ العطَب والهلَكة[2].

معنى حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾ ودَلالتُه:

الوحْيُ سببٌ، طرفُه عندَ الله، والآخرُ عند المؤمنين به من عبادِه

في قوله: ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ دخلت ﴿مِّن﴾ على الظَّرفِ ﴿عِندِهِۦ﴾، وإذا دخلت (من) على الظُّروف فإنَّها تعني ابتداءَ الغاية[3]؛ أي: أنَّ ابتداءَ الوحْيِ كان مِن عند اللّه تعالى، ففيه ما يدلُّ على تعظيم هذا الوحْيِ، وبيانِ مصدرِه ومنشئِه.

دَلالةُ الظَّرف ﴿عِندِهِۦ﴾ وسِرُّ إضافتِه:

التّعبيرُ بالعِنديّةِ كمالٌ للرّفعةِ وتعظيمٌ للتّنزيلِ

في قول نوحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تقييدٌ للرَّحمة بكونِها ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تأكيدًا كما قال: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38]، وفائدتُه رفعُ الاشتراكِ ولو بالاستعارة[4]. وفي إضافتِه للضَّمير العائدِ على الاسم الجليلِ تعظيمٌ وتشريفٌ، وبيانُ رِفعةِ قدْرِ هذه الرَّحمةِ التي أوتيها نوحٌ عليه السلام، فهي من عند العليِّ الرَّحيم سُبحانه. فالتَّعبيرُ بالعِنديَّة يوحي بكمال الرِّفعةِ، وعظَمةِ التَّنزيلِ، وشُمولِ الرَّحمةِ للمُجتبَى بها.

معنى حرفِ الفاءِ ودَلالتُه في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾:

الكفّارُ عندهم عمًى بصيرةٍ يظهرُ نورُ الحُجّةِ فلا يَرونَه

الفاءُ لترتيب ما بعدَها على ما قبْلَها؛ أي: جاءتِ البيِّنة فلمْ تدركوها فخَفِيَت عليكم[5]. وعطفَ (عميت) بفاء التَّعقيب إيماءً إلى عدم الفترةِ بين إيتائِه البيِّنةَ والرَّحمةَ وبين خفائِها عليهم، وهو تعريضٌ لهم بأنَّهم بادروا بالإنكار قبلَ التَّأمُّل[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/338.
(2) الواحدي، البسيط: 11/398.
(3) أبو حيّان، التذييل: 11/151، والسامرائي، معاني النحو: 3/77.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/164.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3700.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.

الغرَضُ منَ الاستعارة في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾:

العلمُ نورُ البصيرةِ الباطنةِ، والأبصارُ نورُ البصرِ الظَّاهرِ

معنى ﴿فَعُمِّيَتْ﴾: فخفيت، وهو استعارةٌ، إذْ شُبِّهت الحُجَّةُ التي لم يُدركْها المخاطَبون كالعمياءِ في أنَّها لم تصلْ إلى عقولهم كما أنَّ العمياء لا يَهتدي للوصول إلى مقصدِها فلا يصلُ إليه. ولمَّا ضمِّن معنى: الخفاء عُدِّي فعلُ ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ بحرفِ على تجريدًا للاستعارة، ويجوز أن يكون هناك استعارةٌ تمثيليَّةٌ بأن شبَّه الذي لا يهتدي بالحُجَّة لخفائِها عليه بمَن سلك مفازةً لا يعرفُ طُرقَها واتَّبع دليلًا أعمَى فيها[1].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالعمَى دونَ الخفاءِ:

قد يَخفَى عنِ العينِ المُبصرةِ شيءٌ، لكنْ يَخفَى عنِ العينِ الكفيفةِ كلُّ شيءٍ

التَّعبيرُ بـ ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ مخفَّفةً ومُشدَّدةً أبلغُ منَ التَّعبير بـ (خَفِيَتْ) و(أُخْفِيَتْ)؛ لأنَّه مأخوذٌ منَ العمَى المُقتضي لأشَدِّ أنواعِ الخَفاءِ[2]، والخطابُ أرفقُ ما يكون لقُربِهم إليه، ولم يقل: كفرتُم بل قال: خفيتْ عليكم. وترك الأمرَ لاختيارِهم، ووجَّه أنظارَهم إلى أنَّ الأمرَ ليس لفضلٍ شخصيٍّ، ولكن لهدْيٍ إلهيٍّ، ولأنَّ رسالاتِ اللهِ بيِّناتٌ وهدايةٌ[3].

نُكتةُ مقابلةِ الاستعارة للقول المَحكي عنهم:

مِن إحقاقِ الحقِّ إعلاءُ شأنِ الفاضلِ، وبيانُ مآثرِ الكريمِ

قولُه: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ وقولُه: ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ و﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ و﴿وَمَا نَرَىٰ﴾: إنَّما قصد نبيُّ اللهِ نوحٌ عليه السلام بهذا القول لقومه أن يرُدَّ عليهم قولَهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ ليظهرَ فضلُه عليهم بأنَّه على بيِّنة من ربِّه عز وجل، وأنَّ اللهَ سُبحانه قد آتى نوحًا عليه السلام رحمةً من عنده، وهم قد سُلِبوا ذلك، فأيُّ فضلٍ أعظمُ منه[4]؟

ومن بديع هذه الاستعارةِ هنا أنَّ فيها طِباقًا لمقابلة قولِهم في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/239، والهرري، الحدائق: 13/84.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/55.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3700.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/466.

مجادلتهم ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾. فقابلَ نوحٌ ﷺ كلامَهم مقابلةً بالمعنى واللّفظ إذ جعل عدمَ رؤيتِهم من قَبيل العمَى[1]، وفي هذا فنٌّ رفيعٌ من فنون البديع، وهو الجمعُ مع التَّقسيم، وهو أن يجمعَ المتكلِّمُ بين شيئين أو أكثرَ، ثمَّ يقسِّمُ ما جمعَ. وفي هذه الآيات ردٌّ على ما أوردوه من شُبَهٍ، حيث قالوا في الآية السَّابقة: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فردَّ عليهم ردًّا يمكنُ إرجاعُه إلى ما أوردوه من شُبَهٍ[2].

تنوُّعُ القراءةِ في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾:

اختلف القُرَّاءُ في قراءة ذلك، فقرأه عامَّةُ قُرَّاءِ أهلِ المدينة وبعضُ أهل البصرة والكوفة: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بفتح العين وتخفيف الميم، بمعنى: فعَميتِ الرَّحمةُ عليكم، فلم تَهتدوا لها، فتُقرُّوا بها، وتُصدِّقوا رسولَكم نوحًا عليها، وقرأ عامَّةُ قُرَّاء الكوفيِّين: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ بضمِّ العين وتشديد الميم، لقُربه من قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾، فأضاف الرَّحمةَ إلى اللّه، فكذلك تعميتُه على الآخرين[3]، فعلى قراءةِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه يكون المعنى: أُلبِسَتْ وشُبِّهَتْ. وعلى قراءة فتح العين وتخفيف الميم، بمعنى: الْتَبَسَتْ وَاشْتَبَهَتْ[4]، وعلى هذه القراءة أُسندَ الفعلُ إليها مجازًا[5]، ففي إسناد العمَى إلى الضمير العائدِ على البيّنةِ مَجازٌ عقليٌّ يفيدُ المبالغةَ في كُرهِ البيّنةِ لهم وبغْضِهم لدرجة أنَّها تتوارى عنهم بُغضًا لهم ومَقتًا.

مَن أراد الهدايةَ وسعَى لها هُديَ بإذنِ الله، ومَنِ استَعمى عنِ الحقِّ أضلَّه الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(2) محمود صافي، الجدول: 6/257.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/298.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/338.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/313.

تَوجيهُ عوْدِ الضَّميرِ في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ ودَلالتُه:

يُعاقَبُ المُعرِضُ عنِ الهدايةِ بالضَّلالِ والعَمايةِ

اختُلِفَ في الضَّمير في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ هل هو عائدٌ على البيِّنة، فيكونَ قولُه: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ جملةً مُعترضةً بين المُتعاطفَين؛ إذ حقُّه (على بَيِّنَةٍ مِّن ربي فَعُمِّيَتْ)، أم هو عائدٌ على الرَّحمةِ فيكونُ قد حُذِفَ منَ الأوَّل لدلالة الثَّاني، والأصلُ: على بيِّنة من ربي فَعُمِّيَتْ[1]، ويجوزُ عوْدُ الضَّمير إلى البيِّنة لاقتضاء خفائِها خفاءَ الرَّحمةِ كما هو شأنُ الدَّليل مع المدلول، ويجوزُ عودُه إلى الرَّحمة باعتبار ذكْرِها بعد البيِّنة كأنَّه قال: فخفيت عليكم رحمةُ اللَّه لكم بهذه النُّبوَّةِ لخفاء البيِّنةِ الدَّالَّة عليها، أو لأنَّ البيِّنةَ خاصَّةٌ به ﷺ، وهي العلمُ الضَّروريُّ الذي يعلمُ به النَّبيُّ أنَّه نبيٌّ[2].

معنى حرفِ الجرِّ في ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ودَلالتُه:

إذا عَميتِ البصائرُ تَبِعتْها الأبصارُ

قولُه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ وهو حرفٌ تتعدَّى به الأفعالُ الدَّالَّةُ على معنى الخفاء، مثل: خفي عليك، ولمَّا كان (عمي) في معنى (خفي) عُدِّي بـ (على)، وهو للاستعلاءِ المجازيِّ؛ أي: التَّمكُّن؛ أي: قوَّةُ ملازمةِ البيِّنة والرَّحمةِ له[3]، وشدَّة تجلُّل قومِه بالعَماءِ عن إبصارِ نورِ الحقِّ، والمبالغةِ في التَّدثُّرِ منه! وهو كما حكاه القرآنُ في موضعٍ آخرَ على لسانِ نوحٍ ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: 7].

الغرَضُ منَ الاعتراضِ في الآية:

الأنبياءُ همْ رَحمةُ الحَقِّ بالخلْقِ

جملةُ: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ لا محلَّ لها منَ الإعراب لأنَّها اعتراضيَّةٌ بين جملةِ ﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وجملةِ ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ المعطوفةِ عليها[4]، إذ حقُّه (على بينة من ربي فعميت)[5]، والغرَضُ من هذا الاعتراضِ تخصيصُ إيتاء الرَّحمةِ بزيادة التَّأكيدِ في أمرٍ عَلِقَ بها، وهي كونُها

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/314.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/55.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(4) محمود صافي، الجدول: 6/252.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/314.

من عند الله تعالى[1]، ولإفادة التَّقريرِ في نفس السَّامعِ أنَّ الله تعالى هو الذي اصطفى نوحًا واجْتباه ومَنَّ عليه بالرِّسالة، وهي من أعظمِ صُوَرِ رحمةِ الله تعالى بخلْقِه[2].

الغرَضُ من حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

يُعاقَبُ المُعرِضُ عنِ الهدايةِ بالضَّلالِ والعَمايةِ

قول نوحٍ ﷺ: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ جملةُ شرطٍ حُذفَ جوابُها، ودلَّ عليه فعلُ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وما سدَّ مسَدَّ مفعولَيْه، وتقديرُ الكلام: يا قوم إن كنتُ على بيِّنة من ربِّي إلى آخره أترون أنلزمُكم قبولَ البيِّنة، وأنتم لها كارهون[3]؟ فنُكتةُ حذفِ الجوابِ هي العلمُ به لتقدُّمِ معناه. والتَّقديرُ: إن كنت على بيِّنة من ربِّي فأخبروني ... إلخ[4].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾:

في حمْلِ النَّفسِ على ما تكرهُ مَشقَّةٌ وضَنًى، لفظًا ومعنى

جاءت هذه الكلمةُ في سياق خطابِ نوحٍ ﷺ إلى قومه، وقد أعْرَضوا عنِ الهُدى، وصمَّموا على رفض الهُدى والإسلام، لذا فإنَّ نوحًا ﷺ أحسَّ بالصُّعوبةِ الشَّديدةِ في إبلاغِهم الهدايةَ، بل هي مستحيلةٌ، وكأنَّه يُرغمُ إنسانًا على شيءٍ وهو كارهٌ له، نافرٌ منه، فجاءت كلمة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ بلفظِها المديدِ أوَّلًا، وقد حُشِر فيها الضَّميران: الكاف (وها)، وإشباعِ حركةُ الميم التي هي ضمَّةٌ، فأصبحت واوًا ثانيًا، وورودُ الاستفهامِ الاستنكاريِّ في بدايتها ثالثًا، وجرسُ حروفِها وإيقاعِها رابعًا، لتتضافر هذه العواملُ، وترسمَ معنى الإكراه ومحاولةِ إبلاغ الشَّيء بصعوبةٍ شديدةٍ إلى من يرفضُه ويأباه، ولو وضعْنا بديلًا عنها: (أنلزمكم إيَّاها) لَتَلاشَى ذلك الجرسُ والإيقاعُ الذي كان لها، وضعُفت فيها القوَّةُ التي كانت تُؤدّيها؛ فهذا سِرٌّ من أسرار الإعجاز[5].

(1) القزويني، الإيضاح: 3/216.
(2) المراغي، علوم البلاغة، ص: 197.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/161.
(5) محمود صافي، الجدول: 6/257.

الغرَضُ منَ الاستفهامِ في ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾:

لا يُكرِهُ الرُّسلُ النَّاسَ حتّى يَكونوا مُؤمِنين

الاستفهامُ إنكاريٌّ؛ أي: ما كان لنا ذلك؛ لأنَّ الله لم يأمرْه بإكراههم إعراضًا عنِ العنايةِ بهم فتركَ أمرَهم إلى الله، وذلك أشدُّ في توقُّع العقابِ العظيم، وهذا تعريضٌ بأنَّهم لو تأمَّلوا تأمُّلًا بريئًا منَ الكراهيةِ والعداوةِ لعلِموا صدْقَ دعوتِه[1] ﷺ، فكأنَّه قال: إن شئتم تلقِّيَها فزَكّوا نفوسَكم، واتْرُكوا إنكارَكم، ففي طيِّ جوابِه ﷺ حثٌّ على تدبُّرِها، وردٌّ عنِ الإعراض عنها، بأسلوبٍ فائقٍ[2]، ويجوزُ أن يكونَ الاستفهامُ للحمْلِ على الإقرارِ لمناسبتِه مقامَ المُحاجَّة، وحينئذٍ يكونُ كلامُه ﷺ جوابًا عن شُبَههم التي أدْرَجوها في خلال مَقالِهم من كونِه ﷺ بشرًا قُصارَى أمرِه أن يكونَ مثلَهم من غير فضْلٍ له عليهم، وقطْعًا لشأفة آرائِهم الرَّكيكة[3].

سِرُّ ضميرِ المُتكلِّمِ المشارك في ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾:

لا يَعدمُ الحقُّ أعوانًا وأنصارًا

في قولِه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ ضميران متَّصلان، وتقدَّمَ ضميرُ الخطاب لأنَّه أخصُّ، ولو جيء بالغائب أوَّلًا لانفصل الضَّميرُ وجوبًا، وقد أجاز بعضُهمُ الاتِّصالَ[4]، وإسنادُ الإلزامِ لضمير الجماعة إمَّا للتَّعظيم أو لاعتبار متَّبعيه ﷺ معه في ذلك[5]، وجيء بضميرِ المتكلِّم المشاركِ هنا للإشارة إلى أنَّ الإلزامَ لو فُرض وقوعُه لكان له أعوانٌ عليه، وهم أتباعُه، فأراد أن لا يُهملَ ذكرَ أتباعِه، وأنَّهم أنصارٌ له لو شاء أن يُهيبَ بهم. والقصدُ من ذلك: التَّنويهُ بشأنِهم في مقابلة تحقيرِ الآخرين إيَّاهم[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51 - 52.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/89.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/202.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/315.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/240.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.

بَلاغةُ الجملةِ الاسميّةِ في ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾:

كراهيةُ الحقِّ تُعمي عنه وتُصِمُّ

يفيدُ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ الثُّبوتَ والدّيمومةَ، وأريد بها هنا تأكيدُ إثبات الصِّفةِ للموصوف بها، أي: إثباتُ كراهيةِ الاهتداءِ والإيمانِ للملأ الكافرين من قوم نوح عليه السلام، فقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ مع تسميتِه لها بيِّنةً إشارةٌ إلى أنَّها لم تُعمّ ولا خفيت عليهم لقوَّة نورِها وشدَّة ظهورِها، وإنَّما هم معانِدون في نفيهم لفضله وفضلٍ من تبعَه، والتَّعبيرُ عن ذلك بالجملةِ الاسميَّةِ واسم الفاعل إشارةٌ إلى أنَّ أفعالَهم أفعالُ مَن كراهتُه لها ثابتةٌ مستحكِمةٌ[1].

الغرَضُ من تقديمِ ﴿لَهَا﴾ على الخبرِ:

ما كُرِه الحقُّ إلَّا بسببِ مرضٍ في القلب مُؤثِّرٍ، وإعراضٍ عنِ التَّدبُّرِ

عُدِّي قولُه: ﴿كَٰرِهُونَ﴾ باللَّام إلى مفعوله لزيادة تقويةِ تعلُّقِ الكراهيةِ بالرَّحمةِ أوِ البيِّنة؛ أي: وأنتم مُبغضون قَبولَها لأجل إعراضِكم عنِ التَّدبُّر فيها، وتقديمُ المجرورِ على ﴿كَٰرِهُونَ﴾ لرعايةِ الفاصلةِ مع الاهتمامِ بشأنِها. والمقصودُ من كلامِه بعثُهم على إعادة التَّأمُّلِ في الآيات، وتخفيضُ نفوسِهم، واستنزالُهم إلى الإنصافِ، وليس المقصودُ معذرتَهم بما صنعوا ولا العُدولَ عن تكرير دَعْوتِهم[2].

مُتشابهُ النَّظْمِ:

قال تعالى في قصة نوحٍ عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾

وقال في قصَّة صالحٍ عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: 63].

حيث خاطب النَّبيَّان نوحٌ وصالحٌ عليهما السلام قومَهما بلفظين تساويا إلَّا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/272.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/53.

فيما اختلفا فيه من تقديم المفعول الثَّاني في الآية الأولى على الجارِّ والمجرور وتأخيرِه عنهما في الآية الثَّانية، فما علَّةُ ذلك؟

مَـن بـالَـغَ في إساءةِ الجوابِ بولِغَ له في تأكيدِ الخطابِ

إنَّ قومَ صالح ﷺ بالغوا في إساءة الجوابِ حين قالوا: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: 62]؛ أي: قد كنتَ مرجوًّا أن تسودَ فينا حتى نقطعَ عن رأيكِ ونرجعَ إليك من أمورنا، فرَموا مقامَه النَّبويَّ بحطٍّ مرتبتِه عنهم، فلمَّا بالغوا في إساءة الجوابِ جاوبَهم صالحٌ ﷺ ردًّا لمقالِهم الشَّنيعِ بقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: 63]، ولا شكَّ أنَّ صالحًا ﷺ كذلك، وأنَّه على بصيرةٍ من أمره، ولكنَّه خاطبَهم على ما يَجري في مناظرةِ مَن فَرَضَ ما لا يعتقدُه المناظرُ على حسبِ نطقِه، ولكنَّه يستنزل بذلك مُناظرَه ليقيم الحُجَّة عليه، فيقول: هبْ كذا على ما تقولُه، فعلى هذا جرى قولُ النَّبيِّ الكريم ﷺ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؛ أي: كيف ترون إن كنتُ على واضحةٍ وعلى يقينٍ من ربِّي، وآتاني منه رحمةً فعصيتُه بموافقتِكم، فإنْ فعلتُ ذلك فمَن ينصرُني ويمنعُني من عذابِه؟ فخاطبَهم ﷺ بطريقة فرْضِ هذا: إن كان كذا، وهو ﷺ العليمُ بحاله الجليلِ، وعلى بيِّنةٍ من ربِّي، وأكّدَ بتقدُّم المجرورِ في قوله ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: 63]؛ لِما يُحرزُ تقديمُه من التَّأكُّد، ويَعيه مفهومُه من أنَّ الرَّحمةَ منه سُبحانه لا يُشركُ فيها غيرَه، فهو مخصوصٌ لا يحصلُ مع تأخيره، فتقديمُ هذا الضَّمير المجرورِ كتقديمِه في قولِه سُبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 4]، فلمَّا بالَغوا في قُبحِ الجوابِ؛ بالغَ ﷺ في ردِّ مقالِهم، فقدَّم المجرورَ لتأكيدِ أنَّ الرَّحمةَ من عند الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: 63].

ولمَّا لم يكن في مراجعةِ قومِ نوحٍ ﷺ مثلُ هذا في شناعة الجوابِ، لأنَّ أقصَى المفهومِ من قولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ إلحاقُه بهم

ومُماثلتُه إيَّاهم، وكلُّهم يقولون: لو كنتَ رسولًا لكنتَ منَ الملائكة ولم تكن لِتُماثِلَنَا. فلم يكن في قول هؤلاء ما في قول قوم صالحٍ ﷺ، فجرَى جوابُه ﷺ على نسبةِ ذلك، فقال: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾، فأتى بالمجرور مؤخَّرًا في محلِّه على ما يجبُ، حيث لا يُقصدُ في إحراز المفهومِ ما قُصدَ في الآية الأخرى، فوردَ كلٌّ على ما يلائمُ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاءُ أقوى منَ الإعطاءِ

يفترقُ الإيتاءُ عنِ الإعطاء بأنَّ الإعطاء له مُطاوعٌ يقال: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإيتاء آتاني فأتيتُ، وإنّما يقال: آتاني فأخذتُ، والفعلُ الذي له مطاوعٌ أضعفُ في إثبات مفعولِه منَ الذي لا مطاوعَ له؛ لأنّه يقال: قطعتُه فانقطع، فيدلّ على أنَّ فعلَ الفاعل كان موقوفًا على قَبول المحلِّ ولولاه لما ثبت المفعولُ، ولهذا يصحُّ قطعتُه فما انقطعَ، ولا يصحُّ فيما لا مطاوعَ له ذلك، فلا يجوزُ أن يقال: ضربتُه فانْضرب أو ما انْضرب ولا قتلتُه فانقتل أو ما انقتل؛ لأنَّ هذه الأفعالَ إذا صدرت منَ الفاعل ثبت لها المفعولُ في المحلّ، والفاعلُ مستقلّ بالأفعال التي لا مطاوعَ لها؛ فالإيتاء إذن أقوَى منَ الإعطاء في إثبات مفعولِه[2].

ويدلُّ أيضًا على أنَّ الإيتاءَ أقوى منَ الإعطاء أنَّ الإيتاءَ في أكثرِ مواضعِ القرآن في ما له ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمةِ والسّبعِ المثاني، والمُلكِ الذي لا يُؤتَى إلّا لذي قوَّةٍ، والإعطاءُ فيما ينتقلُ منه بعد قضاء الحاجةِ منه كإعطاء كلّ شيءٍ خلقَه لتكرّر حدوثِ ذلك باعتبارِ الموجوداتِ، وإعطاءِ الكوثرِ للانتقال منه إلى ما هو أعظمُ منه،

(1) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/255 - 256.

(2) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/85، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

وكقولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]؛ لأنَّ اللّه تعالى بعدما يُرضي النّبيَّ ﷺ يزيدُه وينتقلُ به من كلِّ الرِّضا إلى أعظمِ ما كان يَرجو منه[1].

عـنـدَ أعــمُّ من لَدُن

عندَ ولدُن:

الفرق بينهما أنَّ (عند) لا يَستدعي حضورًا؛ فهو للحاضر والغائب، و(لَدن) يَستدعي حضورًا، تقول: عندي مال وإن كان غائبًا عنك، ولا تقول: لدنِّي مالٌ إلا والمالُ حاضرٌ عندك؛ فـ (عند) بهذا الاعتبارِ أعمُّ من (لدن)[2]، وممّا يجعلُ (لدن) أخصَّ من (عند) أنَّ (لدن) يدلُّ على ابتداء نهايةٍ، نحوَ: أقمتُ عنده من لَدُنِ طلوع الشّمس إلى غروبِها ولَدُن أقربُ مكانًا وأبلغُ من عند. ومن لدنّا: تُستعمَلُ للشّيء الخاصّ الذي يرادُ إعطاؤه لشخص مُقرَّبٍ إلى اللّه تعالى؛ مثل: شيءٍ من علْمِ الغيبِ، قال اللّه ﷻ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف: 65][3]؛ (عند) في لسان العرب لِما ظهر، و(لدن) لِما بطن، فيكونُ المرادُ بالرّحمة ما ظهرَ من كراماتِه، وبالعلْمِ الباطنَ الخفيَّ المعلومَ قطعًا أنَّه خاصٌّ باللّه ﷻ. ولـمَّا كان هذا العلمُ أشرفَ الأشياء استُعمِلَ معه (لدن) الأخصُّ تنبيهًا على شرفِه[4].

(1) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/86، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 298، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لدن)، وبدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/290.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لدن)، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثريّ الجامع: 6/482.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/106، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لدن).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»